جامعة المسيلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإسلامية
السنة الثانية شريعة

محاضرات السداسي الرابع
في مقياس اللغة العربية (البلاغة)

من إعداد الأستاذ: عيسى بوناب

الموسم الجامعي 2023 - 2024

المحاضرة 01

مدخل

اشتهر العرب بالفصاحة والبلاغة في كلامهم وأشعارهم، وكانت بلاغتهم منبع عزهم ومجدهم وداعي فخرهم، وهذا ما تؤكده الفكرة الإعجازية للقرآن الكريم الذي تحدّاهم في أن يأتوا بمثل بلاغته تحدّيا نوعيا.

ولا شكّ أن التحدّي لا يحدث إعجازا ولا معجزة إلا إذا توفّر الداعي إليه وموضوعه، ومن هنا باتت العلاقة واضحة بين ثلاثية العرب والقرآن المعجزة والبلاغة.

إنّ تحدي القرآن للعرب في لغتهم وبيانهم يقيم الدليل الكافي على أنهم كانوا أهل بلاغة وبيان، بعيدين كلّ البعد عن فضول الكلام والحشو، متّجهين نحو الاختصار والاقتصار، مكتفين بما يؤدي المقصود ويبلغ المراد، وهو ديدنهم وعادتهم.

والمتأمّل لحال العرب لا يخفى عليه أنهم كانوا يتباهون في ذلك ويتفاخرون به أيّما افتخار ، ذكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أن "العرب أشدّ فخرا ببيانها، وطول ألسنتها وتصريف كلامها، وشدّة اقتدارها، وعلى حسب ذلك كانت زرايتها على كل من قصر عن ذلك التمام، ونقص من ذلك الكمال" [1]

ولم يقف بهم الأمر عند حدّ التباهي والافتخار، بل كانت بلاغة أحدهم ترفع صاحبها وتجعله سيّد قومه، ونجد ذلك مفصلا عند كلّ من تناول وعدّد أسس السيادة عند عرب الجاهلية، ولعل كثيرا من هذه القضايا تظهر عند معالجة نشأة البلاغة وتاريخها وتطوّر البحث البلاغي على مرّ الأزمنة وتعاقب العصور، وكلّ ذلك لا شكّ متوقّف على بيان جملة عناصر لها حقّ السبق في البحث والتناول كونها تقرّب معنى البلاغة ومفهومها:

أبرز مظاهر البلاغة عند العرب في العصر الجاهلي:

1 _ الإيجاز

أ_ ميول العرب إلى الإيجاز: تميّزت لغة العصر الجاهلي بأنها لغة الإيجاز بامتياز، وكان حرصهم عليه شديدا في مواطنه، لأنه يوافق ميول العرب أنذاك نحو الاقتصار والاكتفاء بما يفهم السامع المرادَ، فكانوا يحذفون من الكلام الحرف والكلمة والجملة إذا ما فهم بدونها، ومن هنا انتُقد السرد الممل، وذُمّت الإطالة في الكلام إذا لم تدعُ إليهما ضرورة، وكل ذلك استحسانا لهذا الإيجاز.

(1) الجاحظ البيان والتبيين 262/3

وبتتبع كلام العرب شعرا ونثرا ندرك أن الإيجاز الذي يظهر إبداعهم وبلاغتهم إنما هو الإيجاز في المواضع التي لا يحتاج فيها فهم المعنى إلى سواه، أما ما يخلّ بالمقصود أو يؤدي إلى بتر المعاني وضياع ما يساق الكلام من أجله فهو إيجاز مذموم تنأى عنه العرب، فليس كل إيجاز من البلاغة وليس كل اقتصار محمودا، قال حازم الأندلسي القرطاجني في ذلك: "وليس يحمد في الكلام أيضاً أن يكون من الخفة بحيث يوجد فيه طيش، ولا من القصر بحيث يوجد فيه انبتار، لكن المحمود من ذلك ما له حظ من الرصانة لا تبلغ به إلى الاستثقال، وقسط من الكمال لا يبلغ به إلى الإسآم والإضجار، فإن الكلام المتقطع الأجزاء، المنبتر التراكيب غير ملذوذ ولا مستحلى، وهو شبه الرشفات المتقطعة التي لا تروي غليلا. والكلام المتناهي في الطول يشبه استقصاء الجرع المؤدي إلى الغصص، فلا شفاء مع التقطيع المخل ولا راحة مع التطويل الممل، ولكن خير الأمور أوساطها" [1].

وذكر الجاحظ في بيان فضل الإيجاز أنه قيل لإياس (بن معاوية): ما فيك عيب إلا كثرة الكلام. قال: أفتسمعون صوابا أم خطأ؟ قالوا: بل صوابا. قال: «فالزيادة من الخير خير»، ثم يعقّب الجاحظ "وليس كما قال، للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه" [2]

ب _ أسباب الإيجاز عند العرب:

إن سعة اللغة العربية وكثرة حروفها وألفاظها التي تفوق بكثير المعاني التي تحيط بالعرب في العصر الجاهلي جعلت الأذهان تنصرف إلى البحث في الأسباب التي جعلت العربي يعدل عن استعمال هذه الوفرة اللغوية ويعمد إلى الإيجاز.

وقد كثر الكلام في هذا المجال وتعددت الآراء، فذهب بعض الباحثين إلى ربط الأمر بالبيئة الصحراوية القاسية التي عاش فيها العرب، فقالوا بأن علاقة العرب بالصحراء، وندرة الماء، وسعيهم إليه سعيا حثيثا جعلهم يطلبون الوصول إلى الهدف من أقصر طريق، ومن هنا تعوّد العربي على الاقتصار في كل شيء إلى أن اكتسب القصد إلى الإفهام بأوجز لفظ ،... وهذا في الحقيقة تعليل غير مسلّم لوجود الإطناب في محله وممّن كان يعيش البيئة نفسها.

وذهب بعض الباحثين في تعليل إيجاز العرب إلى اعتمادهم على ذاكرتهم في الحفظ ولا ريب أن الموجز أيسر حفظا وأقرب تذكرا من غيره.

(1) أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء 65/2

(2) الجاحظ المرجع السابق 101/1

ج _ موقع الإيجاز وأثره في البحث البلاغي:

انطلاقا مما ذكر في الإيجاز عدّه بعضهم ركن البلاغة الركين وأساسها المتين وأصبح عندهم الجزء الذي يراد به الكل، وصارت البلاغة عندهم هي الإيجاز، وكان لذلك الأثر الواضح في الدراسات البلاغية في العصور اللاحقة فيما بعد إلى درجة أنه سيقت بعض التعريفات للبلاغة اعتبارا للإيجاز دون غيره، حيث عرّفها بعضهم بقوله: " البلاغة علم كثير في قول يسير" [1] .

وعرّفها أخرون أنها: "إجاعة اللفظ وإشباع المعنى " [2]

والخلاصة أن الإيجاز ظاهرة بلاغية دار حولها المعنى الإجمالي للبلاغة عند الكثير من الباحثين من أهل البلاغة والبيان.

2_ العناية الفائقة بتحسين الكلام:

عرف العرب بالاجتهاد في صناعة ألفاظهم واختيار ما يريدون من جميل المعاني وإظهار القدرة على ذلك، ولعل نظرا في أيٍّ من أشعارهم ينبئنا بذلك، حيث تطغى المحسنات اللفظية والمعنوية على جلّ كلامهم.

والسؤال الذي يستحضره الذهن ابتداءً في هذا الأمر هو: هل كانت هذه الصناعة وهذا الحسن اللفظي والجمال المعنوي نتاج الموهبة والذوق والفطرة والسليقة أم اعتمدوا في ذلك على الدروس والدربة والمران والتعلم والاحتكاك؟؟

نقل بعض الباحثين إشارة مهمة في هذا المجال عن حازم الأندلسي وعن ابن رشيق مضمونها أنه ما من شاعر مجيد من شعراء الجاهلية إلا وقد لزم شاعرا آخر لمدة طويلة، وتعلّم منه قوانين النظم واستفاد منه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية.

والخلاصة كما يذكر الدكتور عبد القادر حسين [3] أن بلاغة العرب في الجاهلية لم تكن تعتمد على الموهبة أو الفطرة وحدها، وإنما كانوا يعملون على صقلها بالممارسة والدربة والتنقيح والتهذيب حتى تصل إلى ما وصلت إليه، وهذا يتفق مع طبيعة أي فنّ من الفنون، فالموهبة وحدها في العمل الفني لا تجدي إذا لم تساندها الدراسة.

(1) أبو هلال العسكري ، الصناعتين ص 37

(2) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه 42/1

(3) عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي ص